الملتقى الدولي الأول للفنون وحوار الثقافات

الفنانة السويدية سوزان ستراندانجر تحتفي بذاكرة المغرب

عبد الله الشيخ *

استقطبت هذه الدورة المقامة تحت شعار «المغرب وطن واحد بثقافات متعددة» أعمال الفنانة السويدية سوزان ستراندانجر كضيفة شرف

تميزت فعاليات الملتقى الدولي الأول للفنون وحوار الثقافات الذي نظمته مؤخرا بالرباط جمعية المغرب المتوسط للتنمية والتعاون بمشاركة صفوة من المبدعين من مختلف الأقطار الدولية، حيث استقطبت هذه الدورة المقامة تحت شعار «المغرب وطن واحد بثقافات متعددة» أعمال الفنانة السويدية سوزان ستراندانجر كضيفة شرف. وأوضح المنظمون أن الهدف من تنظيم هذا الملتقى هو «خلق فضاء جديد للحوار بين الفنانين والمبدعين من مختلف الثقافات، في وقت أن فيه للمبدعين والمثقفين أن يرفعوا صوت الإبداع والتلاقي في كل مكان بالعالم». وأضافوا أن الملتقى يسعى إلى التعريف بالتنوع الثقافي الخلاق الذي يتميز به المغرب، مما جعله محط اهتمام من قبل مختلف الثقافات في العالم وملتقى للحضارات، ونموذجا للمحبة والتسامح والسلام والازدهار..

ففي إطار برنامج هذا الملتقى الذي ضم عدة ندوات فكرية وعروض مسرحية وورشات إبداعية، قدمت الفنانة سوزان ستراندانجر في رحاب خيمة حوار الثقافات أعمالها التشكيلية التي تستعيد الأزمنة المفقودة للمغرب عبر فضاءات تصويرية تزاوج بين التشخيص التعبيري، والتجريد الغنائي. إنها تزهو بالإرث الحضاري المغربي بدقة حازمة، و خطى حثيثة بوثبة جنية أو عجيبة، نراها متماهية مع عوالمها الداخلية التي تؤثث حالاتنا الروحية على امتداد مساحات إيحائية تدعونا للسفر، وارتياد مجاهل الذات. تحلق بدون أجنحة، علنا نرقى بأحاسيسنا السماوية إلى مدارك الروح. تحدق الفنانة سوزان إلى النور الطبيعي المغربي بعيون يقظة، وتقبض على لحظاته النهارية بتأمل وديعة ، منصتة لنغمات الروح من وراء ضجيج الحضارة المدنية، وجلبة سكانها العميان بصريا. تركت العاصمة ستوكهولم، وفضلت الإقامة بعاصمة سوس العالمة (أكادير)، رافعة لوحاتها الإنسانية إلى صناع حقيقة الجمال والخير والحق. وكأنها تردد بلغة الحالمين مقولة جبران خليل جبران: «أغنني من ماء السياسة، وأخبار السلطة، لأن الأرض كلها وطني وجميع البشر مواطني. (دمعة و ابتسامة)». ترى المغرب الناصعة والبهية فتحت بصيرتها، وطيبوبة المغاربة جلت نظرها الداخلي، والرأسمال الطبيعي علمها لغة القلوب والعقول معا. عندما تسألها عن سر الجمال البصري، تجيبك بلغتها الواثقة: «إن مدينة الجمال كمدينة الخيال إنها عرس يخفر بابه مارد جبار، فلن يدخله إلا من لبس ثياب العرس، أقصد ثياب المعرفة الجمالية».. أخذت سوزان كل عوالمها الفنية التي أنجزتها بالمغرب إلى الأرواح المتحررة من قيود المادة، معتبرة الإبداع مجازا بصريا يعانق الحقيقة و يشاكسها بشغف و حكمة. إنها حدائق من سيرتها الذاتية التي انطبعت بمحطاتها المهنية في صفوف القضاء السويدي، حيث تأثرت بتوجيهات أمها الصارمة. كما أنها تشربت بمعين التجربة الفنية التي أبداها أبوها بروية وتبصر. فبين عالمي الأم والأب، تفتقت أزهار موهبتها الإبداعية على مسرح الأحلام، فكان الإبداع التشكيلي بكل مفرداته البصرية الكبرى (الأجواء المشمسة، الجسد، مختزلة فضاءات شهرزادية، حالات تجريدية... الخ) حلقة تصل بين الأنا والآخر.

هكذا تفصح إبداعاتها الإبداعية عن هوس شديد بالحقائق الذاتية التي تبني أسرار النفوس، و تذكي شرارات التحليل والتأويل. فعلى مسرح أحلامها المذكورة، رأت سوزان جمال المغرب عروسا، وطبيعته لبيبة عروس، والإقامة الاختيارية به لبلة زفاف متجددة. إنها أبت إلا أن تقدم ما تبقى من سجل حياتها إلى هذا البلد المتوسطي الذي احتضن أول معارضها خارج العواصم الغربية. وهي تأتي نسمة من عواصف منتزهاتها اليومية. فالمغرب في منظورها الجمالي روح نبيلة تحب النسمات وتسير مع العواصف.

إن الفن كما تتصوره الفنانة سوزان ديانة باطنية، وحياة مقدسة. ليس الجمال دين الحكماء كما ورد على لسان شاعر هندي: ليس الجمال، بينما نصيب المتأملين بتعبير جبران خليل جبران: لا يتساوى الموت والحياة بالجمال.

في بحار ألوانها المتدفقة وعوالمها المجازية، يهيم المتلقي، ويصغي لأنغام الذات المعزوفة على قيثارة الروح. تقول في هذا السياق: «لقد أعطاني المغرب عينا ترى الجمال، فأنا غنية بسعادتي الداخلية، لا بثروتي الدنيوية، فما أكثر الفقراء بأموالهم وما أقل الأغنياء بسعادتهم». تذكرت حينها قول جبران خليل جبران: «السعادة صبية تولد، و تحيا في أعماق القلب، ولن تجيء إليه من محيطه».

سوزان، قوة هائمة وهادرة في الآن ذاته. فنانة تعيد بناء عوالمنا الداخلية والخارجية معا موغلة في متاهة الأزمنة المفقودة، و جاعلة من المكان البطل الإشكالي للوحاتها الفنية. لكل مؤشر بصري سطوته في التاريخ الخاص، فهو دعوة مجازية للبحث في الماضي، والتدرج من المرئي إلى اللامرئي. لكل مؤشر بصري أيضا، حكايته التي تساءلر وجداننا وتناجي نفسنا. تبوح سوزان في ضيافة أعمالها الشعرية: «إن العالم الذي يسكن لوحاتي هو قلوب الناس، فهي كل ما نملكه عالما. فعلينا أن نتعلم النور من الظلمة، و المعرفة من الجهل، والجمال من القبح».

لقد عرفت سوزان كيف تسير إلى الأمام دون اكتراث ومواربة. فهي لا تعرف الوقوف البتة، لأن الأمام بالنسبة لها طريق البحث عن الكمال النفسي. تذكرني حكمة سوزان بمقولة: «النفس تجني من العوسج تينا بحكمتها، والقلب يستمد من الظلمة نورا بمحبته».

ليست أعمال سوزان مجرد محاولات تجريبية تراهن على الشكل وتتوق إلى الجمال الظاهر. إنها، على عكس ذلك، رسائل معرفية وعرفانية معا، تهجس ببعض أسرار الحياة التي تعرج بنا من مكان إلى مكان، وتنتقل بنا من محيط إلى آخر، ونحن لا نرى إلا حقائقنا الخاصة، ولا نسمع إلا أصواتنا التي تسكن جوارحنا.

لعمري إنها حياة تتوزع بين الحقيقة و الخيال. حياة انبجست من ظلال و أنوار اللوحات. حياة لا يدرك نواميسها إلا من تعقل وتأمل، لأنها مستوحاة من فضيلة تمجيد النفس التي انعتقت من ربقة المادة.

لوحات سوزان مهداة إلى محبي الحكمة، السالكين سبل الانفتاح والتبادل، لا سبل الادعاء والجحود. تتمثل في لوحاتها إحساسا عميقا بالمكان والزمان. المكان كروح للطبيعة الأولى، والزمان كحيز أقوى من الدهر.

مرهفة وشاعرة بطبعها، هي سوزان امرأة حساسة تحلق كالفنان لتلقائيتها المفرطة في الفيض. إنها راحلة تلقي بنظراتها باستمرار جهة شركاء حياتها من صناع الجمال، ومهندسي الروح.

هكذا، تبدو فضاءات لوحاتها بعيدة وقريبة، منظورة ومحجوبة فهي عوالم سحرية تتعالى على الحياة الترابية، وتناهض المجاعة الروحية. عوالم ترجع إلى أمهات مصادرها بحكم الطبيعة، جاعلة من كل لوحة فيضا من فيض، و شذرة معنوية أثارها الحب الداخلي، وأقعمها الشوق إلى الأصل.

طوبى للمغرب لقد جعل هذه الفنانة على غرار عدة فنانين عالميين (ماتيس، دولاكروا، دوستايل، ماجوريل... الخ) تفكر بضمير المفرد بصيغة الجمع فسحر طبيعته، وسخاء سكانه تحققها الجميل، وعينها الثالثة التي فقدتها داخل كوابيس العولمة الموحشة. يخيل إلي وكأن سوزان تهمس في أذننا منشدة: آه، ما أعظم جمال المغرب، وما أصغرنا إنه حياة هذه الحياة.

سوزان ستراندانجر

(...)